الباب الثانى
التعريف بالإسلوب

الفصل الاول
فى حد الأسلوب

إذا سمع الناس كلمة الأسلوب فهموا منها هذا العنصر اللفظى الذى يتألف من الكلمات فالجمل والعبارات . وربما قصروه على الأدب وحده دون سواه من العلوم والفنون . وهذا الفهم يعوزه شيء من العمق والشمول ليكون أكثر انطباقا على مايجب أن يؤديه هذا اللفظ من معني صحيح. وذلك أن هذه الصورة اللفظية التى هي أول ما تلقى من الكلام لا يمكن أن تحيا مستقلة. وإنما يرجع الفضل فى نظامها اللغوى الظاهر إلي نظام آخر معنوى انتظم وتألف فى نفس الكاتب أو المتكلم فكان بذلك أسلوبا معنويا . ثم تكوّن التأليف اللفظى على مثاله . وصار ثوبه الذى لبسه أو جسمه إذا كان المعنى هو الروح . ومعنى هذا أن الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظا منسقة . وهو يتكون فى العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجرى به القلم . فهذا وجه .

والوجه الثانى أن كلمة الأسلوب صارت هذه الأيام حقاً مشتركا بين البيئات المختلفة . يستعملها العلماء ليدلوا بها على منهج من مناهج البحث العلمى ، ويستعملها الأدباء فى الفن الأدبي قصصاً أو جدلا أو تقريراً وفى العنصر اللفظى سهلا أو معقداً . وفى إيراد الأفكار منطقية أو مضطربة

وفى طريقة التخييل جملة ملائمة أو مشوهة نابية . وكذلك الموسيقيون يتخذونها دليلا على طرق اللحين وتأليف الأنغام للتعبير بها عما يحسون . ومثلهم الرسامون فهى عندهم دليل علي طريقة تأليف الألوان ومراعاة التناسب بينها . وهكذا حتى أصبحت هذه الكلمة — أسلوب — ترادف كلمة الشخصية فى المعنى . لهذا كله كان إطلاقها على هذا العنصر اللفظى ضرورة اقتضاها التعليم أولا ، ولأنه هو مظهر العناصر الأخرى ومعرضها ثانياً . . . . فما الأسلوب ؟

فى لسان العرب،ويقال: للسطر من النخيل أسلوب . وكل طريق ممتد فهو أسلوب والأسلوب الطريق،والوجه والمذهب. يقال: أنتم فى أسلوب سوء، ويجمع علي أساليب . والأسلوب الطريق تأخذ فيه . والأسلوب الفن يقال أخذ فلان فى أساليب من القول أي أفانين منه .

هذه المعانى التى نقلناها عن ابن منظور قسمان : قسم حسى يمثل الوضع الأسبق للفظ كسطر النخيل والطريق الممتد أو المسلوك ، والأسلوب عليه خطة يسلكها السائر . وقسم معنوى هو الخطوة الثانية فى الوضع اللغوى حين تنتقل الكلمات من معانيها الحسية الى هذه المعانى الأدبية . أو النفسية وذلك هو الفن من القول أو الوجه والمذهب فى بعض الأحيان . على أن هذه المعانى كلها تنتهى بنا عند فكرة إذا أردنا استعمالها فى باب الأدب كانت ملائمة ، فالأسلوب هو فن من الكلام يكون قصصا أو حوارا . تشبيها أو مجازا أو كناية . تقريراً أو حكما وأمثالا . فاذا صح هذا الاستنباط كان للأسلوب معني أوسع إذ يتجاوز هذا العنصر اللفظى فيشمل الفن الأدبى الذي يتخذه الأديب وسيلة للاقناع أو التأثير .

وإذا تركنا لسان العرب الى مقدمة ابن خلدون رأيناه يتناول الأسلوب في فصل صناعة الشعر ووجه تعلمه حيث يقول : « ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة - صناعة الشعر — وما يريدون بها في إطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب . أو القالب الذي يُفرغ فيه . ولا يرجع الى الكلام باعتبار إفادته أصل المعني الذي هو وظيفة الاعراب . ولا باعتبار إفادته كمال المعني من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان . ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية . وإنما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من اعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب او المنوال ، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب او النساج في المنوال حتى يتسع القالب لمحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام. ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه . فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به . وتوجد فيه على أنحاء مختلفة . فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله : يادارَ ميّةَ بالعلياءِ فالسنَدِ. ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله : قِفَا نَسأل الدارَ التي خَفَّ اهلُها. أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله : قِفَا نَبكِ من ذكري حبيبٍ ومنزلِ.. وامثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه. وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل إنشائية وخبرية، اسمية وفعلية، متفقة وغير متفقة، مفصولة

وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربى ، فى مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك فيه (كذا) ماتستفيده بالارتياض فى أشعار العرب من القالب الكلى المجرد فى الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها .. وهذه القوالب كما تكون فى المنظوم تكون فى المنثور فان العرب استعملوا كلامهم فى كلا الفنيين وجاءوا به مفصلا فى النوعين ففى الشعر بالقطع الموزونة والقوافى المقيدة واستقلال الكلام فى كل قطعة وفى المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً وقد يقيدونه بالاسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة فى لسان العرب » .

هذا النص الذى نقلناه عن ابن خلدون يضع أمامنا عدة قوانين قيّمة فى الدراسات الأدبية .

أولها : أن هناك فارقا بين الوجهين العلمى والفنى فى تكوين الأسلوب الأدبى . فعلوم النحو والبلاغة والعروض تنفعنا على أنها نظريات ترشدنا فى إصلاح الكلام ، ومطابقته لقوانين النظم والنثر ، وقد يعرفها الطالب ولا يحسن معها الانشاء أو ينشىء الكلام الصحيح فقط . وأما صياغة الأسلوب الجميل فهى فن يعتمد على الطبع والتمرس بالكلام البليغ [1] .

ثانيها : أن الأسلوب فى الأصل صورة ذهنية تتملأ بها النفس ويطبع الذوق من الدراسة ، والمرانة ، وقراءة الأدب الجميل ، وعلى مثال هذه الصورة الذهنية تتألف العبارات اللفظية الظاهرة التى اعتدنا أن نسميها أسلوبا لأنها دليله ، وناحيته الناطقة الفصيحة .

(١) راجع المثل السائر ص ٣٠ والصناعتين ص ١٤٧

ثالثها : أن هذه الصورة الذهنية ـ التى هى الأصل الأول للأسلوب ـ ليست معانى جزئية ، ولا جملا مستقلة ، بل طريقة من طرق التعبير يسلكها المتكلم ، كخطاب الطلل ، أو استدعاء الصحب للوقوف والسؤال أو الدعاء له بالسقيا كقوله :

أسْقى طلولهمُ أجشُّ هزيمُ وغدتْ عليهم نضرةٌ ونعيمُ

أو بتسجيل المصيبة على الأكوان عند فقد شجاع كقوله :ـ

منابتَ العُشب، لاحامٍ ولا راعِ مضَى الردى بطويل الرمح والباعِ

رابعها : هذه الفروق اللفظية والمعنوية بين المنظوم والمنثور من حيث الأسلوب ، وأهم ما ذكره امتياز النظم بالوزن ، والقافية ، واستقلال كل بيت بمعنى تام ، وسيأتى تفصيل القول فى ذلك .

والذى يعنينا هنا أن الأسلوب منذ القدم كان يلحظ فى معناه ناحية شكلية خاصة هي طريقة الأداء أو طريقة التعبير التى يسلكها الأديب لتصوير مافى نفسه أو لنقله إلى سواه بهذه العبارات اللغوية . ولا يزال هذا هو تعريف الأسلوب إلى اليوم ، فهو طريقة الكتابة ، أو طريقة الانشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الايضاح والتأثير . هذا تعريف الأسلوب الأدبى .

وأما إذا أردنا أن يكون التعريف عاما يتناول العلوم ، والفنون ... فانا نعرفه بأنه طريقة التعبير ، لأن الفنون الأخرى لها طرق فى التعبير يعرفها الفنيون ، ويتخذون وسائلها أو عناصرها من الألحان والألوان

والأحجار . وكذلك العلماء لهم رموزهم ، ومصطلحاتهم ، ومناهجهم في البحث والأداء .

* * *

ومع ذلك فى الأدب وحده نرى — كما مر بك تفصيله — أن التصرف والاختلاف يكون فى صوغ العبارات بين إيجاز وإطناب ، وسهولة وإغراب ، وبساطة وتعقيد ، وجمال وتنافر — ويكون قبل ذلك في اختيار الأفكار ، وكيفية ترتيبها ترتيبا منطقيا أو مضطربا ، ووضوحها أوغموضها ، وصحتها أو خطئها ، وإخضاعها لطريقة الاستقراء أو الاستنباط — ويكون بعد هذا في طريقة التخييل والتصوير . هل يسلك الكاتب طريقة التشبيه غالبا أو الاستعارة أو الكناية . وما مقدار ابتكاره في ذلك أو تقليده . فلكل كاتب مذهبه فى ذلك أو أسلوبه الخاص فالشيب فى رأى المعرى :—

والشيب أزهار الشباب فماله يخفى . وحسنُ الروض فى الأزهار ؟

وهو فى رأي الفرزدق :—

تَفاريقُ شَيبٍ فى الشباب لوامعٌ وما حُسنُ ليلٍ ليس فيه نُجومُ ؟

ولكن الشريف الرضى يقول :—

غالطوني عَنِ المشيب وقالوا لا تُرع إنه جِلاء حُسامِ
قلتُ : ما أمنُ منَ على الرأس منهُ صارمُ الحد فى يد الأيامِ

انظر بعد ذلك إلى كتاب السيرة المعاصرين كيف اختلفوا فى طريقة العرض بين البحث العلمى المنسق والتمثيلى المقسم والقصصى الجميل . وانظر إلى هذه الشخصيات المتباينة فى الخطابة — كعلى ومعاوية وزياد

والحجاج — وفى الكتابة كالجاحظ وبديع الزمان وابن خلدون وفى الشعر كابى تمام وابن الرومى والبحترى والمتنبى — فانك واجد أنماطاً شتى . واساليب متباينة تجعل لكل فرد طابعا ممتازا . . . . أفيكون من الغريب إذا قلنا : إن الأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير ؟

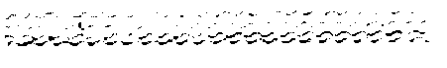

الفصل الثانى

تكوين الأسلوب

وهنا نجد فرقا واضحا — فى تكوين الأسلوب واستكمال عناصره — بين الطالب المبتدىء والكاتب المنتهى ، فالطالب الذى يأخذ فى دراسة الكتابة يسلك الطريق الذى يسلكه زميله طالب الموسيقا او الرسم . نجد تلميذ الموسيقا يبدأ دروسه بتعرف الأدوات الموسيقية والفرق بينها . وطرق استخدامها . وانواع الألحان والأنغام التى تنتجها كل اداة . ثم ينتقل من ذلك الي تأليف الالحان المركبة واستخدام أداتين أو اكثر مع مراعاة الانسجام والتآلف بين الانغام . . وآخر الامر يتعلم كيف يؤلف الدور الموسيقي العام ويتخذ من الأدوات وانغامها وسائل لتوقيع المقطوعات وقد يصل به الأمر الى التجديد والابتكار . كذلك طالب الأدب يبدأ دروسه بتعلم الحروف وتأليف الكلمات منها ، ثم تأليف الجمل من الكلمات تأليفا خبريا أو انشائيا فعلية كانت او اسمية ، ايجابية او سلبية ، مع ملاحظة الفروق الدقيقة بينها وينتقل من الجمل الى الفقرات المؤلفة من الجمل مفصولة او موصولة حسب مقتضيات المعاني . . ولا ينسى طرائق المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والمطابقة وحسن التعليل . . واخيرا هذه الأساليب القصصية او الجدلية او التقريرية او الوصفية منثورة ومنظومة . . ومعنى هذا انه يبدأ بالالفاظ وينتهى الى الفنون الادبية .

اما الكاتب المنتهى فانه يسير فى طريق عكسية ، شأنه شأن الموسيقار البارع تعرض له القطعة الادبية أو يبدو له تصوير معنى نفسي او مظهر طبعى

فيفهم المراد ثم يسمك اياه الحانا منسجمة متسقة، تؤدى ما وراءها فى دقة وجمال ، كذلك الأديب إذا شاء قولا فى الوصف، أو الرثاء ، أو القصص ، اختار معانيه ، ورتبها ، وفسرها طوع مزاجه تفسيرا فنيا ، ثم عبر عنها بالألفاظ التى تجذبها المعانى .. هذا الكاتب كما رأيت يبدأ باختيار الفن الأدبى وينتهى بالألفاظ ، عكس التلميذ الناشىء .

وسواء أعنينا بحال الطالب أم الكاتب ، فان تكوين الأسلوب أهم المظاهر لبراعة الكتاب والشعراء ، وأوضح معرض لقوة الأدراك ويقظة الشعور وجمال الذوق . لذلك كان الكاتب الأمين ذو الطبع الأدبى الصادق ، منصرفا إلى تخير الكلمات الفصيحة ، الدقيقة المعنى ، المتلائمة مع أخواتها ، حتى تطمئن عناصر العبارة فى مواضعها دون إكراه ، وحتى يجمع الأسلوب بين وضوح التفكير وجمال التصوير .

وهذه الدرجة تتطلب من غير شك مرانة دائبة ، وصبرا طويلا ، وذوقا جميلا صادقا وتملؤا بخير الأساليب الأدبية فهما ، ونقدا ، وتمثلا . ويمكن للكاتب أن يلزم نفسه بأمرين اثنين ليوفر لنفسه الفوز بحسن التعبير :—

الأول : الحرص الشديد على الدقة سواء فى أداء الفكرة أو فى صوغ الخيال ، فلا يسمح بكلمة أو عبارة هى أقل أو أكبر من فكرته كما يرفض استعارة قبيحة ، أو كناية غامضة ، أو تعليلا غير حسن .

الثانى : التصرف السديد فى بناء الجمل والعبارات بتقديم بعض العناصر

أو تأخيرها ، وبالقصر أو الفصل أو الوصل ، حتى تكون العبارة صورة صادقة لما في نفسه من المعانى وما فى وجدانه من تصور وموسيقا .

ذلك يتلخص في أن يكون الأسلوب للكاتب طبيعته الثانية .

obeikandl.com

الفصل الثالث

عناصر الأسلوب

رأينا فى الفصل الماضى أن الخطوة الأولى للكاتب إنما هى اختيار الفن الأدبى الذى يعتمد عليه لأداء مافى نفسه من المعانى فهو مقالة أو قصيدة أو رسالة أوقصة أو خطابة عامة أو محاضرة أو كتاب مؤلف. وبعد ذلك يختار المعانى أو الأفكار والحقائق التى يعتبرها هامة جديرة بموضوعه لجدتها أو قوة تأثيرها أو ملاءمتها لقرائه وسامعيه، ثم يرتب هذه الأفكار ترتيبا يصل به إلى نتائجها المرادة، سواء أختار طريقة التحليل أم التركيب.. فاذا انتقل من ذلك الى التعبير عنه بعبارات واضحة تكشف عنه فقد تكوّن له الأسلوب العلمى أو الأدبى بمعناه العام. كما قيل فى وصف الشمس: «الشمس كوكب مضيء بذاته وهى أعظم الكواكب المرئية لنا منظراً، وأسطعها ضوءا، وأغزرها حرارة، وأجزلها نفعا للأرض التى نسكنها. ولكثير من أخواتها سيارات الشمس وبناتها. والشمس كرة متأججة ناراً، حرارتها أشد من حرارة أى ساعور أرضى. ويبلغ ثقلها ثلثمائة وزن من ثقل الأرض. وهى أكبر منها جرما بثلثمائة ألف وألف ألف مرة. وتدور الشمس على محورها من الغرب الى الشرق مرة واحدة فى نحو خمسة وعشرين يوما وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين ألف ألف ميل وخمسمائة الف ميل، وهى مع كل هذا العظم الهائل لاتعد فى النجوم الكبرى، بل إن اكثر ما نشاهده من النجوم الثابتة شموس أكبر من الشمس

بألوف الألوف . والشمس بسيّاراتها تابع من توابع أحدها [١] »

فالفن هنا مقالة اقتبس منها هذا النص . ويلاحظ أن الكاتب كان حريصا على إيثار الحقائق القيمه الدقيقة ، ثم رتبها ذاكراً مسائل عامة تميز الشمس من الكواكب الأخرى ، وأتبع ذلك بذكر الخواص المتصلة بشكلها وحرارتها وحركتها ، وأخيراً هذه العبارة الواضحة المؤلفة من الكلمات والتراكيب . وهنا نستطيع أن نقول إن الأسلوب العلمي يتكون من عنصرين أساسيين : الأفكار . والعبارات . وأما اختيار الأفكار وتنسيقها . وإيثار الكلمات الدقيقة والجمل الواضحة . . فذلك عمل أسلوبي لأنه طريقة يقوم بها الكاتب متأثراً بموضوعه من جهة وبشخصيته من جهة أخري . وقد يتوافر الأسلوب خاصة أخرى . حين يلجأ الكاتب الي الخيال يصور به انفعاله — عاطفته — فيضيق دائرة الأفكار ويأخذ منها أجلّها وأشملها على أسباب القوة والجمال . ثم يفسرها تفسيراً أدبيا كما يشاء خياله ويملي عليه طبعه ومزاجه ، وبذلك نقرأ أسلوبا أدبيا خالصاً تبدو فيه شخصية الكاتب أشدّ وضوحا وأبعد تأثيراً كما قيل فى الشمس كذلك : « سَلِ الشمس مَن رفعها ناراً . ونصبها مناراً . وضربها دينارا ؟ ومن علّقها فى الجو ساعة ، يدب عقرباها إلي يوم الساعة ؟ ومن الذي آتاها مِعراجها ، وهداها أدراجَها وأحلّها أبراجها . ونقّل فى سماء الدنيا سراجها ؟ .

الزمان هى سبب حصوله . ومُنشعبُ فُروعه وأصوله . وكتابه بأجزائه وفصوله . وُلد على ظهرها . ولعب على حجرها . وشاب فى

(١) احمد الاسكندري : نزهة القارىء ج ١ ص ١٦٦

طاعتها وبرّها لولاها ما اتسقت أيامه ، ولا انتظمت شهوره وأعوامه . ولا اختلف نوره وظلامه . ذهبُ الأصيل من مناجمها . والشفق يسيل من محاجمها . تحطمت القرون على قرنها . ولم يعل تطاول السنين بسنها ولم يمح التقادم لمحة حسنها (١) » .

هذا النص يختلف عن سابقه مع اتحاد موضوعهما . فالأول وقف عند الحقائق والعبارات وصاغ منها الأسلوب العقلي الخالص . والثاني تجافى عن الحقائق التفصيلية الدقيقة كالأعداد والمقاييس ، ووقف عند رءوس الأفكار وأهمها ، ثم تصوّرها أشياء جميلة لاعجابه بها . وصورها بخياله فكانت جميلة مؤثرة . فالشمس دينار مضروب وساعة معلقة عقرباها الليل والنهار . وهي كتاب الزمن ومهده وأمه ، وهذا الأصيل ذهب من مناجم الشمس والشفق سائل من محاجمها .... الي غير ذلك مما نفصله بعد . وبذلك نقول ان الأسلوب الأدبي ينحل الى عناصر ثلاث : الأفكار والصور والعبارات . وكذلك يكون الاختيار الذي يتناول الأفكار والصور والعبارات عملا أسلوبيا ، هو طريقة الصياغة التي تتصرف في تلك العناصر بما تراه أليق بموضوع الكلام .

فاذا كان الفن شعراً كقول حافظ ابراهيم في الشمس :—

لاحَ منها حاجبٌ للناظرين ... فتَنسّوا بالليل وضّاح الجبينْ
وتحت آيتُها آيتهُ . . . . . وتبدّت فتنةً للعالمين
هي أم النار والنور معا ... هي أم الريح والماء المعين
هي طلعُ الروض نَوْرا وجنى ... هي نشر الورد طيب الياسمين
هي موت وحياة للورى ... وضلال وهدي للعابرين (٢)

(١) — احمد شوقي : أشواق الذهب ص ٠ ٤٢ — الديوان ج ١ ص ٢٠٧

لاحظت الوزن والقافية يلزمان الشعر فوق هذه العناصر التي ذُكرت في الاسلوب الادبي، والتي ستجد انها في باب النظم تختص بميزات فنية نشرحها في الكلام علي أنواع الاساليب.

obeikandl.com